السلفيون

٢٣٧ — نقصد بالسلفيين أولئك الذين نحاوا أنفسهم ذلك الوصف ، وإن كنا سنناقش بعض آرائهم من حيث كونها مذهب السلف ، وأولئك ظهروا فى القرن الرابع الهجرى ، وكانوا من الحنابلة ، وزعموا أن جملة آرائهم تنتهى إلى الإمام أحمد بن حنبل الذى أحيا عقيدة السلف وحارب دونها ، ثم تجدد ظهورهم فى القرن السابع الهجرى ، أحياه شيخ الإسلام ابن تيمية وشدد فى الدعوة إليه ، وأضاف إليه أموراً أخرى قد بعثت إلى التفكير فيها أحوال عصره ، ثم ظهرت تلك الآراء فى الجزيرة العربية فى القرن الثانى عشر الهجرى أحياها محمد بن عبد الوهاب — فى الجزيرة العربية — ومازال الوهابيون ينادون بها ، ويتحمس بعض العلماء من المسلمين لها ، ولذلك كان لا بد من بيانها .

وقد تعرض هؤلاء الحنابلة للكلام فى التوحيد ، وصلة ذلك بالأضرحة . تكلموا فى آيات التأويل والتشبيه ، وهى أول ما ظهروا به فى القرن الرابع الهجرى : ونسبوا كلامهم إلى الإمام أحمد بن حنبل ، وناقشهم فى هذه النسبة بعض فضلاء الحنابلة .

وقد كانت المعارك العنيفة تقوم بينهم وبين الأشاعرة ، لأنهم كانوا يظهرون حيث يكون للأشاعرة سلطان قوى لا ينازع ، فتكون بين الفريقين الملاحاة الشديدة ، وكل فريق يحسب أنه يدعو إلى مذهب السلف ، وقد بينا مذهب الأشاعرة فى ذاته ، وإن كنا لم نبين مقدار صلته بالآراء التى أثرت عن السلف ، وفى هذا الجزء سنتعرض لتمحيص العقيدة السلفية فى أثناء عرضنا لتفكير هؤلاء الذين يحملون أنفسهم ذلك الاسم ، موازنة بين الاسم والحقيقة .

منهاج هؤلاء السلفيين :

٢٣٨ — علمنا أن « المعتزلة » نهجوا فى بيان العقيدة الإسلامية منهجاً فلسفياً قبسوا فيه من منطق اليونان ومن طرائق الفلاسفة فى الجدل والمناظرة ، وقد كان مانصبوا أنفسهم له — وهو الدفاع عن الإسلام — باعثاً لأن ينهجوا ذلك المنهج ، وجاراهم فى

ذلك المنهاج الفلسفى الأشاعرة ، والماتريدية ، وهؤلاء الأخيرون قاربوهم فى أكثر ما انتهوا إليه من نتائج ، وإن ناقشوهم الحساب .

ولقد جاء أولئك السلفيون فخالفوا ذلك المنهاج ، وأرادوا أن تعود دراسة العقائد إلى ما كانت عليه فى عهد الصحابة والتابعين ، فلا يأخذوها إلا من الكتاب والسنة ، فيأخذوا من القرآن الكريم أصل العقيدة ، والدليل الذى بنيت عليه العقيدة ، ويمنعوا العلماء من أن يفكروا فى أدلة القرآن الكريم ، وإذا كان الباقلانى قد سوغ لنفسه أن يقيد الناس بأدلة الأشعرى فأولى ثم أولى أن يقيدوا الناس بأدلة القرآن الكريم .

وقد قسم ابن تيمية الذى ضبط منهاجهم — طرائق العلماء فى فهم العقائد الإسلامية إلى أربعة أقسام :

القسم الاول : الفلاسفة ، وهؤلاء يقولون : القرآن الكريم جاء بالطريقة الخطابية ، والمقدمات الإقناعية التى تقنع الجمهور . ويدعون أنهم هم أهل البرهان واليقين ، والعقائد طريقها البرهان واليقين .

والقسم الثانى : المتكلمون ، أى المعتزلة ، وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر فى الآيات القرآنية ، فهم يأخذون بالنوعين من الاستدلال ولكن يقدمون النظر العقلى على الدليل القرآنى ، فيؤولون على مقتضى العقل وإن كانوا لا يخرجون عن عقائد القرآن الكريم .

والقسم الثالث : طائفة من العلماء تنظر إلى ما فى القرآن الكريم من عقائد للعقل فتؤمن به ، وبما فيه من أدلة ، فتأخذه لا على أنه أدلة هادية مرشدة موجهة للعقل ليلتمس المقدمات من بينها ، بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للاستنباط العقلى . ويظهر أنه يجعل من هذا القسم الماتريدية إذ يستعينون بالعقل ليبرهنوا على عقائد القرآن الكريم .

والقسم الرابع : قسم يؤمن بالقرآن الكريم — عقائده وأدلته — ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية(١) ؛ ويظهر أنه يقصد من هؤلاء الأشاعرة .

---

(١) راجع الأقسام الأربعة فى رسالة معارج الوصول لابن تيمية :

وبعد هذا التقسيم قرر ابن تيمية أن منهاج السلف ليس واحداً من هذه الأربعة، بل هو غيرها ، لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص ، ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص ، فهؤلاء السلفيون لا يؤمنون بالعقل لأنه يضل، ولكن يؤمنون بالنص، وبالأدلة التي يومىء إليها النص ، لأنه وحي أوحى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقررون أن تلك الأساليب العقلية مستحدثة في الإسلام ، ولم تكن معروفة قطعاً عند الصحابة والتابعين . فإذا قلنا أنها ضرورية لفهم العقائد فمؤدى ذلك أن هؤلاء السلف ما كانوا يفهمون العقائد على وجهها ، ولا يدركون على الوجه الأكمل أدلتها ؛ ويقول في ذلك ابن تيمية : يقولون إن لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات ، ولا أصحابه يعلمون ذلك ، بل لازم قولهم أنه لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من أحاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لا يعرفه .

٢٣٩ — وينتهي من هذا إلى أن السلفيين كما يصورهم ابن تيمية يرون أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا ، واعتقاداً واستدلالا — إلا من القرآن الكريم والسنة المبينة له ،والسير في مسارهما ، فما يقرره القرآن الكريم وما تشرحه السنة مقبول لا يصح رده خلعاً للريبة ، فليس للعقل سلطان في تأويل القرآن الكريم وتفسيره أو تخريجه — إلا بالقدر الذي تؤدي إليه العبارات ، وما تضافرت عليه الأخبار . وإذا كان للعقل سلطان بعد ذلك فهو في التصديق والإذعان . وبيان تقريب المنقول من المعقول ، وعدم المنافرة بينهما . فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً ؛ يكون مقرراً مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً ، ويكون موضحاً لما اشتمل عليه القرآن الكريم من الأدلة .

هذا هو منهاجهم . وهو يجعل العقل سائراً وراء النقل يعززه ويقويه ،ولا يستقل بالاستدلال . بل يقرب معاني النصوص ؛ وقد درسوا الوحدانية والصفات وأفعال الإنسان ، وكون القرآن الكريم مخلوقاً أو غير مخلوق ، والصفات والآيات التي توهم التشبيه وهكذا .

الوحدانية :

٢٤٠ — ينظر هؤلاء السلفيون إلى الوحدانية على أنها الأساس الأول للإسلام ،

وذلك حق لا مجال فيه للريب، ويفسرون معنى الوحدانية تفسيراً فى جملته يتفق وما يقرره المسلمون أجمعون، ولكن يفرضون أن أموراً تنافى الوحدانية لايقرهم جمهور المسلمين عليها، فهم مثلا يعتقدون أن التوسل إلى الله بأحد من عباده الذين مضوا إلى ربهم مناف للوحدانية، ويعتقدون أن زيارة الروضة الشريفة مستقبلا لها منـاف للوحدانية، ويعتقدون أن إقامة شعائر حول الروضة الشريفة مناف لذلك، وأن التوجه بالدعاء إلى الله تعالى، مستقبلا ضريح نبى أو ولى مناف للوحدانية، وهكذا . . . ويعتقدون أن ذلك «مذهب السلف الصالح» وأن غيره بدع يقدح فى معنى التوحيد.

والوحدانية كما يقرر علماء المسلمين لها شعب ثلاث، وحدانية الذات والصفات، ووحدانية الخلق والتكوين، ووحدانية المعبود.

وحدانية الذات والصفات :

٢٤١ — وقد اتفق المسلمون على أن الله تعالى واحد : ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، ويقول ابن تيمية فى ذلك :

لفظ التوحيد والتنزيه والتشبيه والتجسيم ألفاظ قد دخلها الاشتراك بسبب اصطلاحات المتكلمين وغيرهم، فكل طائفة تعنى بهذه الأسماء ما لا يعنيه غيرهم، فالمعتزلة وغيرهم يريدون بالتوحيد والتنزيه نفى جميع الصفات وبالتجسيم والتشبيه إثبات شىء منها، حتى أن من قال أن الله يرى، أو أن لله كلاماً هو عندهم مجسم، وكثير من الطوائف المتكلمة فى صفاته يريدون بالتوحيد والتنزيه نفى الصفات الخبرية أو بعضها(١) وبالتجسيم والتشبيه إثباتها أو بعضها، والفلاسفة تعنى بالتوحيد ما تعنيه المعتزلة وزيادة. حتى أنهم يقولون ليس له صفة سلبية أو إضافية، أو مركبة منهما (٢).

والمراد بالصفات السلبية مثل القدم والبقاء، لأن معناهما لا أول له ولا انتهاء، والمراد من الإضافة مثل رب العالمين أو خالق السموات والأرض وفاطر السموات والأرض، والمراد من المركبة المخالفة للحوادث.

---

(١) مثل «كلم الله موسى تكليما» ومثل «مالك الملك» وغير ذلك من الصفات التى تبين أحوالا خاصة تليق بالرب سبحانه وتعالى، وجاء بها الخبر والقرآن الكريم.

(٢) نقض المنطق لابن تيمية ص ٣٥٦ :

: وإن اختلاف العلماء فى هذه المعانى يقتضى أن يكفر فريق الآخر ، لأنه اختلاف نظرى لا اختلاف حقيقة ، ولا يكفر السلفيون أحداً من مخالفيهم ولكنهم يعتبرونهم من أهل الزيغ ، فيحكمون بزيغ الفلاسفة والمعتزلة والصوفية الذين يقولون بالاتحاد والفناء فى الذات .

السلفية والأشاعرة :

٢٤٢ — وإذا كان هؤلاء الذين ذكرناهم من أهل الزيغ فى نظر السلفيين الذين وضح ابن تيمية رأيهم ، فما هو رأى السلف الذى لا زيغ فيه فى نظره ؟ يقرر ابن تيمية أن مذهب السلف هو إثبات كل ما جاء فى القرآن الكريم والسنة من صفات وأسماء وأخبار وأحوال ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** » . ويقول « **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** » . ويقول « **هو العليم الحكيم** » ، و « **هو السميع البصير** » ، « **والعليم القدير** » . « **وهو العزيز الحكيم** » ، و « **هو الغفور الرحيم** » ، « **وهو الغفور الودود** » « **ذو العرش المجيد** » « **فعال لما يريد** » ، « **وهو الأول والاخر ، والظاهر والباطن** » . « **وهو بكل شى عليم** » « **هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير** » ويقول « **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** » ويقول سبحانه « **رضى الله عنهم ورضوا عنه** » ويقول سبحانه « **وغضب الله عليه ولعنه** » ويقول سبحانه « **لمقت الله أكبر من مقتكم** » ويقول سبحانه « **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة** » ويقول سبحانه « **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين** » .

٢٤٣ — وهكذا يثبتون كل ما جاء فى القرآن الكريم أو السنة عن أوصافه سبحانه أو شئونه . فيثبتون له المحبة ، والغضب ، والسخط والرضا ، والنداء ، والكلام ، والنزول إلى الناس فى ظلل من الغمام ، ويثبتون الاستقرار على العرش ، والوجه واليد من غير تأويل ولا تفسير بغير الظاهر ، بيد أن هذا ليس كشأن الحوادث ، فليست يده كيد الحوادث ، ولا نزوله كنزولهم ، ولا وجهه كوجوههم ، فإن الله سبحانه

وتعالى منزه عن ذلك.ويعتبر ذلك المنهاج هو منهاج السلف الصالح،ويقول فى ذلك : والصواب ماعليه أئمةالهدى ، وهو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه،أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يتجاوز القرآن الكريم والحديث ، ويتبع فى ذلك سبيل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان ، والمعانى المفهومة من الكتاب و السنة، لا ترد بالشبهات ، فيكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ،ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا،و يترك تدبر القرآن الكريم فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى .

فهو بهذا يرى أن مذهب السلف يثبت لله اليد من غير كيف ولا تشبيه ، والوجه من غير كيف، والفوقية والنزول وغير ذلك من ظواهر النصوص القرآنية، ويقصد الظواهر الحرفية ، لا الظواهر ولو مجازية ، وهو بعد ذلك المذهب ليس مجسماً ولا معطلا ويقول فى ذلك :

« ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل ، فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته، وكل واحد من فريقى التعطيل والتمثيل جامع بين التعطيل والتمثيل ؛ ويكرر هذا المعنى فيقول مؤكداً أن الله ينزل ويكون فى فوق وتحت من غير كيف .

وليس فى كتاب الله تعالى ، ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف ، حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً ، ولم يقل أحد منهم أن الله ليس فى السماء ، ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه فى كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ،ولا أنه داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها »(١).

٢٤٤ — وعلى ذلك يقرر « ابن تيمية » « أن مذهب السلف » هو إثبات

---

(١) المجموعة الكبرى فى مجموعة الرسائل الكبرى ص ٤٠٩ .

كل ما جاء فى القرآن الكريم من فوقية وتحتية واستواء على العرش ، ووجه ويد ومحبة وبغض ، وما جاء فى السنة من ذلك أيضاً من غير تأويل وبالظاهر الحرفى ؛ فهل هذا هو مذهب السلف حقاً ؟ ونقول فى الإجابة عن ذلك : لقد سبقه بهذا الحنابلة فى القرن الرابع الهجرى كما بينا ، وادعوا أن ذلك مذهب السلف ؛ وناقشهم العلماء فى ذلك الوقت وأثبتوا أنه يؤدى إلى التشبيه والجسمية لامحالة ، وكيف لا يؤدى إليهما ، والإشارة الحسية إليه جائزة ، لذا تصدى لهم الإمام الفقيه الحنبلى الخطيب ابن الجوزى ، ونفى أن يكون ذلك مذهب السلف ، ونفى أيضاً أن يكون ذلك رأى الإمام أحمد ، وقال ابن الجوزى فى ذلك :

« رأيت من أصحابنا من تكلم فى الأصول بما لا يصلح . . فصنفوا كتباً شانوا بها المذهب ، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام . فحملوا الصفات على مقتضى الحس ، فسمعوا أن الله خلق آدم على صورته ، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات ، وفماً ولهوات وأضراساً ، وأضواء لوجهه ، ويدين وأصبعين وكفاً وخنصراً وإبهاماً ، وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين . وقالوا : ما سمعنا بذكر الرأس ، وقد أخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات ، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة ، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل ولا من العقل ، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعانى الواجبة لله تعالى ، ولا إلى إلغاء ما توجبه الظواهر من صفات الحدوث ، ولم يقتنعوا أن يقولوا صفة فعل ، حتى قالوا صفة ذات ؛ ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا لا نحملها على توجيه اللغة ، مثل يد على نعمة وقدرة ، ولا مجىء وإتيان على معانى بر ولطف ، ولا ساق على شدة ، بل قالوا : نحملها على ظواهرها المتعارفة ، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين ، والشىء إنما يحمل على حقيقته إن أمكن ، فإن صرف صارف حمل على المجاز ، ثم يتحرجون من التشبيه . ويأنفون من إضافته إليهم ، ويقولون نحن أهل السنة ، وكلامهم صريح فى التشبيه ؛ وقد تبعهم خلق من العوام ، وقد نصحت التابع والمتبوع ، وقلت يا أصحابنا ، أنتم أصحاب وأتباع ، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله يقول وهو تحت السياط : كيف أقول مالم يقل ، فإياكم أن تبتدعوا من مذهبه ما ليس منه ، ثم قلتم : الأحاديث تحمل على ظاهرها ؛ فظاهر القدم الجارحة ، ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات ، وينبغى ألا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل ، فإنا به عرفنا الله تعالى ، وحكمنا له بالقدم ، فلو أنكم قلتم

نقرأ الأحاديث ونسكت ما أنكر أحد عليكم ، وإنما حملكم إياه على الظاهر قبيح . فلا تدخلوا فى مذهب هذا الرجل السلفى ما ليس فيه »(١).

وقد استفاض ابن الجوزى فى بيان بطلان ما اعتمدوا عليه من أقوال ، ولقد قال فى ذلك القول الذى ينقده ابن الجوزى القاضى أبو يعلى الفقيه الحنبلى المشهور المتوفى سنة ٤٥٧ هـ ، وكان مثار نقد شديد وجه إليه ، حتى لقد قال فيه بعض فقهاء الحنابلة : « لقد شان أبو يعلى الحنابلة شينا لا يغسله ماء البحار » ، وقال مثل ذلك القول من الحنابلة ابن الزاغونى المتوفى سنة ٥٢٧ هـ ، وقال فيه بعض الحنابلة أيضاً : « إن فى قوله من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه » ، وهكذا استنكر الحنابلة ذلك الاتجاه عندما شاع فى القرن الرابع والقرن الخامس ، ولذلك استتر هذا المذهب ، حتى أعلنه ابن تيمية فى جرأة وقوة ، وزاد آراءه انتشاراً اضطهاده بسببها ، فإن الاضطهاد يذيع الآراء وينشرها ، ولذلك كثر أتباعه بسبب الاضطهاد وكثب الرأى ذيوعاً وانتشاراً.

٢٤٥ — ونرى هنا أنه يجب أن نذكر أن ادعاء أن هذا مذهب السلف موضع نظر ، وقد رأينا رأى ابن الجوزى فى ذلك الرأى عندما شاع فى عصره .

ولنا أن ننظر نظرة أخرى ، وهى من الناحية اللغوية ، لقد قال سبحانه « **يد الله فوق أيديهم** »وقال : « **كل شىء هالك إلا وجهه** » .

أهذه العبارات يفهم منها تلك المعانى الحسية ، أم أنه تفهم منها أمور أخرى تليق بذات الله تعالى . فيصح أن تفسر اليد بالقوة أو النعمة ، ويصح أن يفسر الوجه بالذات ، ويصح أن يفسر النزول إلى السماء الدنيا بمعنى قرب حسابه ، وقربه سبحانه وتعالى من العباد ، وإن اللغـــة تتسع لهذه التفسيرات ، والألفاظ تقبل هذه المعانى ؟ .

وكذلك فعل الكثيرون من علماء الكلام ، ومن الفقهاء والباحثين ، وهو أولى بلاشك من تفسيرها بمعانيها الظاهرة الحرفية والجهل بكيفياتها ، كقولهم إن لله يداً ، ولكن لا نعرفها ، وليست كأيدى الحوادث ولله نزولا ، وليس كنزولنا ، إلى آخره ،

---

(١) (دفع التشبيه) لابن الجوزى

فإن هذه إحالات على مجهولات لانفهم مؤداها ولا عاقبتها ، بينما لو فسرناها بمعان تقبلها اللغة وليست غريبة عنها لوصلنا إلى أمور غريبة فيها تنزيه ، وليس فيها تجهيل.

التأويل والتفويض :

٢٤٦ — إن هذا يؤدى عند ابن تيمية إلى أن الأسلم هو التفويض الذى يدعيه وينسبه إلى السلف الصالح ، فيأخذ الألفاظ بظواهرها الحرفية ؛ ويطلقها على معانيها الظاهرة فى أصل الدلالة ؛ ولكنه يقرر أنها ليست كالحوادث ؛ ويفوض فيها بعد ذلك ، ولا يفسر . ويقول إن محاولة التفسير زيغ ؛ ويعتمد على قوله تعالى : **« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب »** .

فابن تيمية يعتقد أنه بهذا يجمع بين التفسير والتفويض ، فهو يفسر بالمعنى الظاهر ، وينزه عن الحوادث ويفوض فى الكيف والوصف ، فهو يرى أن الصحابة كانوا يعلمون معانى الآيات المتشابهات التى فيها وصف باليد والرجل والوجه والاستواء والنزول وغير ذلك ، ويعلمونها على معانيها الظاهرة . ولا يحاولون تعرف كيفها وحقيقتها كما لا يحاولون معرفة حقيقة الذات .

هذا ما يقرره ابن تيمية مذهباً للسلف ؛ ولكن يخالف فى ذلك الغزالى فيقرر فى كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » ؛ أن هذه الألفاظ التى تجرى فى العبارات القرآنية والأحاديث النبوية لها معان ظاهرة ، وهى الجسية التى نراها . وهى محالة على الله تعالى ، ومعان أخرى مجازية مشهورة يعرفها العربى من غير تأويل ، ولامحاولة تفسير ، فيقول فى ذلك رضى الله عنه : « التقديس معناه أنه إذا سمع اليد والأصبع وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خمر آدم بيده » ، و « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » . فينبغى أن يعلم أن هذه الألفاظ تطلق على معنيين (أحدهما) وهو الوضع الأصلى . وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب . واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة ، وأعنى بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو إلا أن يتنحى عن ذلك المكان ،

وقد يستعار هذا اللفظ أعنى اليد لمعنى آخر ليس هذا المعنى بجسم أصلا ، كما يقال البلدة فى يد الأمير ، فإن ذلك مفهوم ، وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلا ، فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق ، قطعاً ويقيناً أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك جسماً هو عضو مركب من لحم ودم وعظم ، وأن ذلك فى حق الله تعالى محال ، وهو عنه مقدس ، فإن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم ، فإن كل جسم مخلوق ، وعبادة المخلوق كفر ، وعبادة الصنم كانت كفراً ، لأنه مخلوق .

ونرى من هذا أن « حجة الإسلام الغزالى » يبين معانى هذه الألفاظ بمجازها المشهور الذى هو واضح فيها كل الوضوح ، ولا شك أن السلف الصالح الذين يفهمون مجازى اللغة وحقيقتها كانوا يطلقون هذه الألفاظ على معانيها المجازية المشهورة التى كانوا هم يستعملونها ، فهل يتصور أن الذين يبايعون النبى صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة عندما يتلون قوله تعالى : **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما** » — يفهمون أن اليد هنا يد ليست كيد المخلوقات ، ولا يفهمون أن المراد سلطان الله تعالى وقدرته ، بدليل ما فيها من تهديد لمن ينكث بأن مغبة النكث تعود عليه .

ولذلك نحن نرجح منهاج الماتريدى ومنهاج ابن الجوزى ومنهاج الغزالى ونرى أن الصحابة كانوا يفسرون بالمجاز إن تعذر إطلاق الحقيقة كما يفسرون بالحقيقة فى ذاتها .

خلق القرآن الكريم .

٢٤٧ — وقد جر الكلام فى الصفات إلى الكلام فى خلق القرآن الكريم ، ولقد خاض فيه أولئك السلفيون — كما سموا أنفسهم فى الماضى ، وفى العصر الحاضر — وقد قرروا أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ، تكلم به وأوحى به إلى نبيه الكريم ، والقراءة هى صوت القارىء الذى يسمع ، وهى على ذلك غير القرآن الكريم بل هى تلاوته ، أما القرآن الكريم فكلام الله تعالى ، ولذلك قال تعالى : « **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقد سمع أبا موسى الأشعرى وهو يقرأ ، فقال له أبو موسى : « لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا » .

ويقول ابن تيمية بهذا مقالة الإمام أحمد — وقد أشرنا إليها آنفاً: « السلف قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربى . وما تكلم به فهو ، وليس مخلوقاً منفصلا عنه، فلا تكون الحروف التى هى أسماءالله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة ، لأن الله تكلم بها » .

ولا يرى ابن تيمية أن ثمة تلازماً بين أن يكون القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن يكون قديماً ، بل يرى أن القرآن كلام الله تعالى وغير مخلوق ، ولكن لا نحكم بأنه قديم ، ولذلك يقول : « السلف اتفقوا على أن كلام الله منزل غير مخلوق . فظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين » ثم يبين أن القرآن ليس صفة الكلام القديمة القائمة بذات الله تعالى، فيقول : « وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن قيل إنه ينادى بصوت ويتكلم بصوت لا يلزم من ذلك قدم الصوت . وإذا كان قد تكلم بالقرآن الكريم والتوراة والإنجيل لم يمنعوا من أن يتكلم بالياء قبل السين» (١)

وإن هذا الكلام يستفاد منه أن صفة الكلام قديمة ، وأن كلام الله الذى نخاطب به خلقه كالقرآن الكريم والتوراة والإنجيل لا يعد مخلوقاً لله ، ولا يعد قديماً .

٢٤٨ — هذه نظرات أولئك الذين سموا بالسلفيين ، وادعوا أنهم يحكمون آراء السلف الصالح ، وتلك آراؤهم فى وحدانية الذات وتفريعات أقوالهم . وقد تبين فى ثنايا كلامنا مقدار الصحة فى نسبة هذه الآراء إلى السلف الصالح رضى الله عنهم ، ولننتقل إلى بقية آرائهم فى الوحدانية فنتكلم فى وحدانية التكوين .

---

(٢) آراء ابن تيمية هذه مبثوثة فى الجزء الثالث من كتاب (رسائل ومسائل) طبع المنار ج ٣ ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ١٠٦ .